# (6)

## «إن العرب فى حاجة إلى تضامن صحيح لا إلى تضامن صورى..»

**ما هو دور الناصرية فى العالم العربى .. وكيف تلعب دورا نشيطا ومتناميا فى حركة القومية العربية التى فجرها جمال عبد الناصر ؟**

إن الدافع القومى للأمة العربية ، أمر لا يختلف عليه اثنان ، ولست هنا فى مجال بيان عوامل هذه القومية ، فقد أصبحت هذه العوامل راسخة فى ضمير الشعب العربى ووجدانه . ولم تصبح القضية فى عصرنا الحاضر ، هى إثارة هذه العوامل ، بقدر ما هى اتخاذها منطلقا لبناء حضارى جديد هدفه المستقبل ، نافضا عن نفسه غبار التخلف. متحررا من كافة عوامل القهر والاستغلال بحركة ثورية دائبة ، ترسى دعائم فلسفة جديدة بفكر جديد يحطم كافة العقبات ، وما ران على الفكر العربى من جمود . تشده الرجعية دائما إلى الوراء تارة باسم التراث وتارة باسم الدين- والدين من ذلك براء- وتارة أخرى بمهاجمة الحضارات الحديثة والفخر المبالغ فيه بالماضى ، وذلك هروبا من منطلقات وتبعات بناء مجتمع وحضارة حديثة تحتاج إلى جهد وفكر وعلم ، أصبح المجتمع العربى ببنائه الاجتماعى المتخلف ، غير قادر على مواجهتها والتصدى لها . وكما يقوم «توفيق الحكيم» الذى استوعب التجربة أخيراً «أن كثرة الكلام عما يسمى بالا نحلال الحضارى الأوربى هو محاولة لإراحة أنفسنا من سباق النشاط الحضارى الحقيقى لأوربا والعالم» .

وإذا كان الواقع القومى العربى هو حقيقة تاريخية منذ أقدم العصور، تباين ظهوره فى مراحل التاريخ المختلفة نتيجة عوامل داخلية وخارجية. فأن ذلك لا يغير من حقيقة انتماء الشعب العربى إلى هذه القومية، رغم كثير من المحاولات لطمس معالمها. بإبراز اتجاهات مختلفة كان مصيرها جميعا الفشل.

ومن الواضح أن القومية العربية كغيرها من القوميات مذهب عقائدى، ومن الواجب إيضاحه خارج نطاق الأفكار التى تؤلفه. وليست اختبارات اللغة والوعى التاريخى وغيرهما من الخصائص القومية إلا تطبيقات للفكرة القومية. وكلها يعتمد على التقبل المسبق لوجود الأمة كعامل فى المجتمع السياسى. ومهما قيل عن القوميات الحديثة فإن هناك نتيجة مذهبية موضوعية واحدة للقومية يكاد يكون الإجماع كاملا عليها، وهى أنها - أى القومية - تضع الحدود للمجتمع السياسى.

وقد واجه تحديد الشخصية الذاتية للقومية العربية عدة مصاعب، أهمها بعض المفاهيم الدينية الخاطئة التى كانت ترى أن البحث فى الشخصية والذاتية النفسية موضوع محظور فى الإسلام من الناحية الثقافية وظهرت مدارس فكرية كثيرة لكلا الاتجاهين مما ممكن الاستعمار من استغلال هذه الفرقة لتثبيت أقدامه فى الوطن العربى وفى أجزاء كبيرة من

العالم الاسلامى .

والشئ الواضح هو أن أوربا كانت فى نهاية القرن التاسع عشر تضم فى غالبها دولا قومية واعية لذاتها ، بينما لم يكن الشرق العربى على هذا النحو . وكانت أوربا الغربية قد غدت بلادا صناعية بينما لم يكن الشرق العربى قد وصل هذه الدرجة من التطور ، وبينما كان الغربيون يفكرون على صعيد نظام طبقى مؤلف من ثلاث طبقات اجتماعية كان العرب يفكرون فى غذائهم أولا ، وفى تصنيف مهنى معقد ثانيا. وكانت القوميات التى يتحدث عنها الأوربيون قد ظهرت كاملة ملموسة على الصعيد السياسى . بينما ظلت القومية فى الشرق لفظة مطلقة لا تمت إلى الواقع ، وظلت فكرة الأمة العربية مفتقدة فى ذلك الحين .

وقد اتضح للكثيرين فيما بعد أن فكرة الجماهير ترتبط ارتباطا تاما بمشكلات الشخصية القومية ، وذلك لأن الشخصية مشكلة فردية فى أساسها ، ولا يتوافر وجود الجماهير التى تشكل المحتوى السياسى لأى مجتمع - إلا بعد أن تغدو المشكلة القومية مشكلة واسعة. وذلك لمواجهة التحديات المفروضة من الخارج.

ولم تكن القومية العربية عند المسلمين الرد الفورى على الضغوط الغربية. فعلى النقيض من ذلك جرت المحاولة لبعث إسلامى سياسى ثم تلتها محاولة أخرى لإصلاح النظرية القانونية والفلسفة فى الإسلام. لتتقبلا متطلبات المجتمع الحديث ونظرته الاقتصادية ومؤسساته الفكرية. وارتبط السيد جمال الدين الأفغانى بالمحاولة الأولى وهى حركة الجامعة الإسلامية ، بينما ارتبط الشيخ محمد عبده بالمرحلتين اللاحقتين. وقد تولى الشيخ محمد رشيد رضا تفسير آراء الرجلين ، ولاسيما آراء الأفغانى ، وان شاب تفسيراته بعض الخطأ لتأثره بالمذهب الوهابى الذى ظهر فى الجزيرة العربية. وكان هدف الحركات الثلاث تجديد الحيوية عند المسلمين وخلق الإحساس لديهم بالكرامة والعصرية والتضامن والحفاظ على القيم الدينية. ولاريب فى أن هؤلاء القادة الثلاثة من قادة العصرية الإسلامية ، رغبوا فى أن يؤدى الإسلام فى وجه القومية العربية دور الفكرة القومية.

وقد مُنيت جهودهم بالفشل نتيجة أسباب عدة ، منها زوال الخلافة العثمانية وأطماع بعض الحكام العرب ، واحتلال بريطانيا لمصر. والانشقاق الذى حدث فى وجهة النظر بين الصفوة السلفية التى ضمت علماء الدين والتى جعلت اعتمادها الأساسى على الدين ، وبين العصريين من المثقفين ثقافة غربية. ولم تحقق فكرة الجامعة الإسلامية أهدافها ولكن أنصارها نجحوا فى إيجاد تفسير جديد للفكرة الإسلامية

إلى الحد الذى بات فيه دعاة القومية من المسلمين والمسيحيين على السواء ، يعتبرون الشخصية الإسلامية جزءا لا يتجزء من القومية العربية. وقد استخدمت تعابير الإرادة والعقل والتاريخ والطبيعة الفلسفية لسد الثغرة بين الفلسفة الإسلامية والفكرة القومية. ولعل من مظاهر ضعف الفكرة القومية فى ذلك الوقت ، نفس المظاهر التى نشأت فى سائر القوميات الأخرى . والتى حدثت بتأثير الازدواجية الكامنة فى الشخصية والمجتمع وبتأثير الأحاسيس الذاتية والنسق المتعارف عليه فى المجتمع الإنسانى .

لاشك أن مصر وشعب مصر يحتلان مكانا بارزا فى نطاق الواقع القومى العربى، وفى هذه المنطقة من العالم ، لعدة عوامل مختلفة ومعروفة يعيها الشعب العربى من المحيط إلى الخليج ، ولم تكن هذه المكانة وليدة العصور الحديثة ، بل هى قديمة قدم التاريخ نفسه .

فيقول «ساميفيل» فى كتابه «كنوز مصر» : «لقد توصل الإنسان شيئا فشيئا بفضل احتكاكه بالعالم الخارجى، وبعد كثير من التحول والتغيرات الجوهرية إلى تعريف نفسه بنفسه والى الشعور بإنسانيته . وما من شعب صمد بشجاعة كالشعب المصرى فى وجه غائلات الزمن وسلطان المادة. إن تاريخ الشعب المصرى ليس فى مجموعه سوى محاولة للانتصار

على الزمن وتخطى المادة . وقد لعب فى مكانه دورا أساسيا فى تطور الجنس البشرى ، ولو لم يحقق ما حققه لما وصلنا إلى ما نحن عليه» . ويواصل «ساميفيل» كلامه: «ولكن من هذا الوجه الأجدع للإله الشاب المختار بين الكثيرين غيره ، ومن هذه العيون المنطفئه ، وهذه الشفاه المطبقة الصامتة التى لن تنفتح أبدا ، ينبعث بقوة شمسية ، السهم الذهبى المثلث لرسالة تخطت حدود الزمان والمكان والعقل لتصل أخيرا إلينا. إنها رسالة الجمال والحكمة والصمت» .

فالشعب المصرى بأصالته وصلابته كان دائما وسيظل حجر الزاوية فى بناء مستقبل هذه المنطقة . وقد مر كما مر غيره من الشعوب العربية - بفترة البلبلة الفكرية والازدواجية بين الفكر الإسلامى والفكر القومى العربى ، مما حد من قدرات انطلاقه فى مرحلة استغلها الاستعمار لتكريس وجوده وتدعيم سلطانه فى المنطقة . وكانت الدول الأوربية الاستعمارية قد وقعت معاهدة لندن سنة 1840 بهدف عزل مصر وتقييد حركتها داخل حدودها ، كيلا يقوم فى المنطقة من يرث الرجل العثمانى المريض ، ويترك ذلك لأطماع الدول الاستعمارية ، ولم يكن محمد على فى سعيه لإنشاء إمبراطورية تضم بلاد الشام والجزيرة العربية والسودان إيمان بالقضية العربية ولكنه كحاكم إقطاعى عاش فى ظروف ارتباط المجتمعات الإقطاعية الشرقية بالسوق الرأسمالى الأوربى

الأخذ فى الانتشار استهدف تحقيق أهداف الدولة الإقطاعية القديمة فى التوسع الاقليمى بوسائل جديدة.

إلا أنه من الثابت أن أهداف معاهدة 1840 هى فرض التجزئة فى هذه القضية من ناحية الحكم ومن ناحية الحركات الشعبية. وقد تلا ذلك احتلال مصر بواسطة بريطانيا سنة 1882 وعقد إبان الحرب العالمية الأولى اتفاق سايسكس- بيكو الذى يقسم أرض سوريا والعراق بين بريطانيا وفرنسا، كما صدر وعد بلفور بإنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين، بذلك فُتت النضال العربى وتبعثرت جهود القوى القومية، وأصبحت المشكلة الوطنية تحتل المقام الأول فى كفاح كل شعب عربى على حدة.

وقد مر الفكر المصرى فى غضون القرن الأخير بأعظم درجة من التحول وأن كان الوضع فى البلاد العربية الأخرى، لم يختلف كثيرا عن وضع مصر، وأن كان أقل غموضا. ففى مصر التابعة اسميا للسلطان- الخليفة العثمانى أخذ الخدويون يتطلعون إلى مزيد من الاستقلال والى رفع مرتبتهم، هادفين إلى الوصول إلى مرتبة الملكية. وقد تحولت هذه المطامع التى كانت سببا فى الكثير من إجراءات التعصير التى وقعت فى القرن التاسع عشر، إبان الاحتلال البريطانى، إلى رغبة فى تحقيق الاستقلال عن بريطانيا بمساعدة السلطان العثمانى.

كما كان يتطلع الملك فؤاد فى مستهل القرن العشرين إلى الوصول إلى مرتبة الخلافة بعد إلغائها فى تركيا سنة 1924 . إلا أن دعاة القومية والحركة الوطنية فى مصر كانوا يتوقون إلى الخلاص من النفوذ الأجنبى وإلى تحديد سلطات الملك وصلاحياته. وأدت تجزئة البلاد العربية فى الهلال الخصيب واقتسامها بين الانتدابين البريطانى والفرنسى ، إلى تثبيط العزائم فى التفكير بأى تعاون مع البلاد العربية فى فترة ما بين الحربين .

وكان المثقفون والكتاب المصريون يبحثون عن شعار مناسب لتجسيد القومية المصرية . وراحوا يتشبثون فى مرحلة من المراحل ببعث الفكرة الفرعونية القديمة ، وهى فكرة لا تلقى أى صدى الآن وآمنوا بالفكرة التى دعا إليها الدكتور طه حسين ذات يوم والتى باتت منسوخة الآن ، وهى أن مصر تؤلف جزءا لا يتجزأ من حضارة متوسطية (البحر المتوسط) واسعة . وكان هناك مع ذلك فى الثلاثينات اتجاه اكثر قوة من الاتجاهين الآنفى الذكر إلى الشعارات الإسلامية عن طريق الكتب التى تناولت سير حياة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وخلفائه . ولم يعدل عن هذه الشعارات فيما بعد ، وان دمجت مع الشعارات الداعية للوحدة العربية .. ومع ذلك فقد كان ثمة إحساس معين بالقلق من هذه الشعارات ، إذ بالرغم من قيادة مصر الفكرية لعرب المشرق والمغرب على حد سواء ، إلا انه يبدو أنه كان هناك إفراط فى استخدام هذه الشعارات دون الانفعال بها.

وقد أثرت هذه التيارات المختلفة على رجال السياسة المصريين ، فقد كانت الرأسمالية الوطنية التى تقود الكفاح فى مصر محدودة الطموح ، ومحدودة الإيمان فى قوة نضال الشعوب فى الداخل والخارج. وكان تكتل الشعوب العربية فى نظر سعد زغلول زعيم ثورة سنة 1919 مجرد جمع أصفار . وكان الإنجليز ضد أى تقارب مصرى من الشعب الفلسطينى والعربى .. كما ارتبطت مصالح كبار ملاك الأراضى المصريين بفكرة المصرية المنعزلة عن العرب خارج الدولة . وقد وقفت حكومة محمد محمود سنة 1929 ضد ثورة الشعب الفلسطينى وكتبت جريدتهم «السياسة» تهدد الوطنيين الفلسطنيين بالطرد لإثارتهم الرأى العام خوفا من غضب بريطانيا ومن أى عامل يثير الشعب . كما صادر إسماعيل صدقى سنة 1930 كثيراً من الصحف الوطنية ، وأقام حكمه على البطش بالحركة الوطنية وعلى الإرهاب . وأغلق جريدة «الشورى» الفلسطينية التى تصدر فى مصر لصاحبها محمد على الطاهر ولكنه أبقى على جريدة «اسرائيل» التى أنشأها ألبرت موصيرى منذ سنة 1920 والتى كانت تدافع عن الصهيونية وتنشر الدعوة لها . وكان إسماعيل صدقى من قبل وهو وزير الداخلية سنة 1929 قد اعتقل الوطنيين الفلسطنيين الذين هتفوا ضد «بلفور» صاحب الوعد المعروف ، أثناء مروره بالقاهرة لافتتاح الجامعة اليهودية فى فلسطين[1].

(١) الحركة السياسية فى مصر طارق البشرى

وبالرغم من ذلك فقد كان التجاوب والتعاطف بسبب وحدة الظروف وتشابه المشاكل وتجاوب أصداء الكفاح عبر الحدود قد نمت بشكل ملحوظ. وكانت مصر ملجأ لقادة العرب الهاربين من الاضطهاد. ثم كانت مظاهرات الجماهير بالتأييد إرهاصا للمستقبل، بالعمل الشعبى الواحد ضد العدو الواحد. ثم كان إرسال المعلمين واستقبال الطلبة ممهدا السبيل أمام الوحدة الفكرية الثقافية.

وأخذ الاتجاه العربى يتبلور فى مصر شيئا فشيئا رغم مقاومة السلطة لهذا الاتجاه إرضاء للمستعمر البريطانى، وقد ظهر ذلك فى اتجاهات الحزب الوطنى وحزب الوفد ومصر الفتاة و «الإخوان المسلمون» إلا أنها كانت ترتبط عادة بالفكر الدينى أو بالشعوب الشرقية على وجه العموم. ثم بدأ الاتجاه العربى يظهر فى كتابات بعض الكتاب والمفكرين فى فترة الثلاثينيات أمثال أحمد زكى باشا ومحمود عزمى وعبد القادر المازنى ومحمد على علوبة ومكرم عبيد وغيرهم. وأصبح من الواضح أن القومية العربية أصبحت عقيدة مقبولة فى الوطن العربى ولاسيما عند المثقفين ولكنها لم تكن مطبقة بشكل فيه الكثير من المعانى على الحياة السياسية اليومية[٢].

(٢) نفس المصدر السابق.

وكان موقف الحركة الوطنية المصرية من قضية فلسطين والقضية العربية عامة، يتأثر كثيرا بأسلوب كفاح هذه الحركة ويصعب تصور أن يؤدى أسلوب الكفاح بكافة الوسائل "السلمية المشروعة" - أسلوب الحركة الوطنية بقيادة الوفد - إلى نتائج عملية أكثر فاعلية مما تحقق. فهو باعتباره (مشروعا) يقبل الحدود والفواصل القائمة. وباعتباره (سليما) تتحدد مساهماته أساسا فى الدعم السياسى.

ولا شك كان الهدف من قيام الجامعة العربية بإيعاز من بريطانيا "وقع بروتوكول الجامعة 7 أكتوبر 1944" هو أن تكون وعاء يربط بين دول الجامعة بحلف عسكرى واحد يتم تكوينه على مراحل. وأن تكون الجامعة أداة لكبح الشعوب الثورية أو المتطرفة فى العالم العربى. وقد ذكرت عن ذلك جريدة الديلى تلجراف البريطانية (أن ظهور هذه الروح قد يؤدى إلى تخفيف حدة الروح الوطنية المصرية التى بدأت الظواهر تشير إلى وصولها إلى درجة خطيرة كما حدث عقب الحرب الماضية).

وجاءت حرب فلسطين عام 1948 والعالم العربى ممزق تتحكم فيه الأطماع والشهوات من الداخل والخارج، وتتحكم فى البلاد العربية أنظمة رجعية متحالفة مع المستعمرين الذين كانوا أول من عمل على إقامة إسرائيل "دولة اليهود".

ودخلت مصر حرب سنة 1948 فجأة . ولكن ذلك كان محاولة لصرف نظر الشعب المصرى عن تردى الأوضاع الداخلية خصوصا بعد فشل عرض قضية مصر فى مجلس الأمن فى يوليو 1947 والاضطرابات التى كانت تجتاح البلاد وكان أهمها ثورة ضباط البوليس أيام حكم وزارة النقراشى باشا.

كما كان التنافس بين العائلات المالكة فى مصر والسعودية والأردن والعراق أى بين الهاشميين والسعوديين وعائلة محمد على من الأسباب التى أدت إلى قرار الملك فاروق بدخول المعركة دون علم الحكومة فى ذلك الوقت.

ولكن لم تسر الرياح كما تشتهى السفن وحلت نكبة فلسطين. وتشرد الشعب الفلسطينى نتيجة مؤامرات الاستعمار والرجعية العربية المتحالفة مع الاستعمار. وعاد الظلام يرخى ظلاله مرة أخرى على العالم العربى وأصبحت البلاد العربية فى حاجة إلى تغييرات جذرية فى النظم القائمة بها . فقد ضاق الشعب العربى - الذى اندفع بكل عواطفه وأحاسيسه وروحه العربية ليساهم فى المعركة - وبدأت بذور الثورة تكتمل فى نفوس الشعب لإنقاذ ما يمكن إنقاذه.

قامت ثورة يوليو سنة 1952 فى مصر بقيادة الزعيم الخالد جمال عبد الناصر ولقد شاءت الطبيعة أن تكون مصر بلدا عربيا تشبع بالثقافة والحضارة العربيتين مدة ثلاثة عشر

قرنا، وحين وجدت نفسها على عتبة مرحلة حاسمة من تطورها التاريخى ، لم تتمكن من أن ترجع التقهقرى إلى غابر الزمن لتعود إلى عبادة آثارها القديمة منقطعة عن ماضيها القريب المفعم بالحياة والوعود.

كان عليها أذن أن تتجه إلى المستقبل .. نحو العروبة ، تماما كما على نهر النيل أن يجرى فى اتجاه البحر المتوسط.

رأى عبد الناصر أن الحياة فى النصف الثانى للقرن العشرين ومجابهة المشاكل العالمية فى تعقيداتها وتقلباتها وتطوراتها ، دون الاعتراف بأن العروبة حقيقة موجودة ، هو إنكار لمغزى التاريخ ورفض لواقع لا يحتمل الجدل، لواقع له وجهة نظره ومصاعبه وتطوره وأسباب وجوده . لأول مرة منذ ألفى سنة أصبحت مصر حرة تماما يحكمها حاكم من أبنائها . وبدا أن الشعوب العربية التى كان يبدو عليها الإنهاك لدرجة دعت بعض الخبراء إلى القول بأنها على أبواب القبر ، استيقظت فى رعشة مادة ذراعيها نحو المستقبل.

رأى عبد الناصر أن يقتحم الحواجز والقيود والأساليب البالية التى فرضت على النضال المصرى والعربى ، وان يستخدم أساليب جديدة فى الكفاح تتفق مع تطورات حركات الشعوب المغلوبة على أمرها ، رافضا كافة الوسائل «السلمية المشروعة» التى سار عليها النضال العربى حتى عام 1952.

بدأ عبد الناصر بمواجهة المشكلة الوطنية التى ظلت بلا حل أكثر من سبعين عاما تدور فى متاهات الوعود البريطانية ودهاليز عصبة الأمم المتحدة وقاعات المفاوضات . واستطاع من خلال «عودة الروح» إلى شعب مصر وبأساليب الكفاح الثورى والدبلوماسية التى حاك خيوطها مع زملائه بأناة وصبر وشجاعة ، متجاوبا مع بيئته المتحفزة و المعبرة عن أمانى الشعب فى الحرية والتقدم ، أن يجبر بريطانيا على الجلاء عام 1954 ، أى بعد قيام الثورة بسنتين فقط .

بدأ عبد الناصر يتطلع بعد ذلك إلى وطنه الكبير .. الوطن العربى، وكان قد شعر أن المأساة التى يعيشها شعب مصر هى جزء من مأساة اكبر يعيشها الشعب العربى. وأن قدر مصر مرتبط بمستقبل الأمة العربية. وأن حرية مصر واستقلالها مرتبطان بحرية واستقلال الشعوب والدول العربية . ورأى أن العدو الذى يواجه العرب هو الاستعمار الذى أنشب أظافره وبراثنه فى الجسد العربى وراح يمتص دماءه . وأن الإمبريالية- وهى صورة الاستعمار الحديث- تقسم العالم إلى فريقين من الدول، دول أحرزت تقدما اقتصاديا وتكنولوجيا على حساب دول أخرى فُرض عليها التخلف فى المضمارين نتيجة لما نزع من ثرواتها وحريتها لتنعم بها طبقات المستغلين من الدول الإمبريالية. ووجد أن الأمة العربية ليست وحدها فى هذا النضال ضد الاستعمار فى صورتيه المباشرة ، والجديدة ، وأن هناك أمما وشعوبا أخرى قامت

وما زالت تقوم بمعارك ضده فى حركات عالمية شاملة، تتمثل فى يقظة الحركات الوطنية فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، فضلا عن أن هناك مجموعة أخرى من الدول تبنت الأيديولوجية الاشتراكية، مما جعلها فى صراع لا هوادة فيه مع الإمبريالية باعتبارها أعلى مراحل الرأسمالية المستغلة، ومن ثم فهى بطبيعة الموقف حليفة قوية للحركات الوطنية الحديثة بحكم أن العدو فى الحالتين واحد.

وقد استعان الاستعمار من جانبه فى المنطقة العربية، كما هو فى كل مكان آخر بمجموعة من أبنائها ارتبطت مصالحها بمصالحه واتحدت أهدافهما فى استغلال جماهير الشعب العربى الكادحة واستنزاف ثرواتها وأرضها. وعندما نحلل طبيعة تكوين هذه المجموعة التى يتألف منها أذناب الاستعمار، نجد أنها تتألف من فئتين تتحكما فى مقاليد الأمور فى معظم البلاد العربية فى ظل الاستعمار وأساطيله:

طبقة من الإقطاعيين، تلقوا الأرض مصدر قوتهم الاقتصادية والسياسية، من يد حكام دخلاء على الوطن العربى مقابل خدمات يؤدونها لهؤلاء الحكام على حساب الشعب، ويفرضون سيطرة إرهابية على الريف، و يحتكرون لأنفسهم خيراته، والأغلبية الساحقة من الفلاحين تعيش على الكفاف أو قد لا تجده. وكانت هذه الظاهرة بارزة فى مصر ممن مكنوا للاحتلال البريطانى عام 1882.

وطبقة المستغلين الرأسماليين الذين كونوا ثرواتهم من خدمة المستعمر يتلقون الفتات الذى يلقيه إليهم، ويفرضون على الجماهير الكادحة من العمال استغلالا أنانيا ويربطون اقتصاد المجتمع كله برأس المال الأجنبى ويضعونه فى خدمته ويمكنون له موارد الثروة فى البلاد .

وبرغم ما بين هاتين الطبقتين من تناقضات أساسية فإنهما اتحدتا بحكم وحدة المصلحة فى ظل المستعمر وتحالفتا فى فرض ديكتاتورية رجعية على مختلف أجزاء الوطن العربى الذى جزأه الاستعمار حتى يستطيع أن يفرض سيطرته الكاملة عليه .

كان هذا هو العدو الذى يواجهه النضال العربى ويتحدى وعى الجماهير العربية ، ويقف عقبة كأداء فى سبيل تحقيق تطلعاتها.

وقد واجه عبد الناصر هذا العدو واستطاع أن يقلم أظافر هاتين الطبقتين فى مصر و يحطم نفوذها الاقتصادى والسياسى، بل أنه استطاع أن يعزلهما عن شعوبهما فى كثير من البلاد العربية مما مكن لعديد من الثورات العربية التحررية فى العالم العربى.

وقد دخل عبد الناصر معاركه على المستوى القومى ضد محاولة جر مصر والبلاد العربية إلى الأحلاف الاستعمارية

واستطاع أن يجمد «حلف بغداد» فى بغداد وحدها إلى أن تمكن شعب العراق من القضاء على هذا الحلف نهائيا فى ثورته المجيدة عام 1958.

كما عمل على ربط كفاح الشعب العربى بكفاح شعوب العالم المناضلة ضد الاستعمار. وكان مؤتمر باندونج هو المنبر الدولى الذى ارتفع فيه صوت القومية العربية بشكل قوى وفعال ليؤكد حيوية الحركة القومية العربية وأنها بدأت مرحلة جديدة من النضال خارج الحدود والقيود التى فرضت عليها من قبل وليؤكد أن حركة الشعوب واحدة ضد عدو واحد هو الاستعمار.

ومن خلال هذا النضال عمل عبد الناصر على القضاء على الازدواجية التى كانت قائمة بين الفكر الاسلامى والفكر العربى ويوحدهما فى حركة سياسية واحدة، تعتمد أساسا على الجماهير العربية، التى أرست دعائم الحضارة الإسلامية منذ القرن السابع الميلادى والتى تحملت عبء الكفاح والنضال لنشر رسالة الإسلام فى مشارق الأرض ومغاربها. وبذلك قضى على المحاولات التى كانت تستغل فى الماضى للفصل بين الفكرين وأدت إلى فشل كل من الحركات الإسلامية والحركات العربية فى تحقيق أهدافهما.

وجاءت معركة 1956 التى كانت نهاية حتمية لعدوان أعد إعداداً خبيثا لا مبرر له مطلقا سوى الرغبة فى استعادة النفوذ المفقود ، والعودة إلى العصور الذهبية للاستعمار، ومحاولة المستحيل لدفع عجلة التاريخ إلى الوراء . فالفرنسيون كانوا يعتقدون أن عبد الناصر هو سبب بلائهم ومصائبهم كلها خاصة ما يتعلق منها بحرب الجزائر، والبريطانيون كانوا يهدفون إلى المحافظة على بترولهم واستعادة سيطرتهم على الطريق الإمبراطورية الشهيرة. وقد ثبت أن معركة السويس لم تكن معركة مصر وحدها . ولكنها كانت معركة الشعب العربى كله الذى شارك فيها بأحاسيسه ووجدانه. وكانت الشرارة الأولى لتغيرات اجتماعية وسياسية كبيرة فى كثير من البلاد العربية. بل لقد اعتبرتها شعوب العالم الثالث فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية معركتها ، فلأول مرة يناضل بلد صغير ضد قوى استعمارية كبيرة ويستطيع أن يثبت وجوده ويخرج منتصراً. مما كان حافزا لشعوب كثيرة لتحصل على استقلالها السياسى فى الستينات من هذا القرن أى فى أعقاب معركة السويس ، كما عبر عن ذلك أحد الساسة الأفريقيين الذين حضروا اجتماعات الجمعية العامة للأمم المتحدة إبان حرب السويس.

وتعتبر الحركة القومية العربية الداعية إلى الوحدة التى يجسدها فكر عبد الناصر، والذى يطلق عليها اسم «الناصرية»

ثورة على ثلاثة أوضاع سياسية مترابطة.

فالهدف الأول الأكثر وضوحا للحركة «الناصرية» هو أنها احتجاج من الشعوب العربية على تجزئتها إلى عدد من الدول المستقلة. فقد استطاع فكر عبد الناصر أن يُبرز حقيقة ثابتة من حقائق التطور البشرى ، وهى ضرورة التكتل والتجمع فى سبيل الاستزادة من الكرامة والأمان. ويعبر الميثاق عن هذا الاتجاه تعبيرا جميلا بقوله «أصبح طريق الوحدة هو الدعوة الجماهيرية لعودة الأمر الطبيعى لأمة واحدة فرقها أعداؤها ضد إرادتها وضد مصلحتها ، والعمل السلمى من أجل تقريب هذه الوحدة ثم الإجماع على قبولها تتويجا للدعوة والعمل معا». كما أن تاريخ هذه المنطقة يثبت بما لا يدع مجالا للشك أهمية الوحدة والترابط بين شعوب هذه المنطقة ليس لأسباب سياسية واقتصادية وثقافية فقط بل من الناحية الاستراتيجية أيضا، فالغزوات التى كانت تستهدف هذه المنطقة كانت دائما تتحطم نتيجة الجهد المشترك بين الشعوب العربية. وقد وعى حكام مصر هذه الحقيقة. فحينما غزا التتار المشرق العربى واجتاحوا بغداد ، خرج لهم المصريون وهزموهم فى معركة «عين جالوت» . وكذلك خرج صلاح الدين الأيوبى ليهزم الصليبيين فى «حطين» . وحينما بدأ العثمانيون غزو مصر خرج المصريون لملاقاتهم فى «مرج دابق» . وبهزيمة المصريين فى هذه المعركة فُتحت أبواب مصر للغزو العثمانى . ويقول

«ليونارد باندر» فى كتابه الثورة العقائدية فى الشرق الأوسط: «ولا ريب أن فى وسع الذين يتطلعون إلى مزيد من المنطق فى الأسباب التى أدت إلى نجاح الناصرية على صعيد الحركة الوجودية العربية، أن يطبقوا تحليل الأستاذ «كارل دويتش» لتكوين المجتمعات القومية فى أوربا، إذ أن هذا التحليل قد ينطبق على المنطقة العربية أكثر من انطباقه على المنطقة التى تولى الأستاذ دراستها. وتؤلف مصر على ضوء هذا التحليل نواة هذه المنطقة لا بفضل موقعها الجغرافى أو ثروتها الفائضة فحسب، بل وبفصل سعة مساحتها، ووفرة سكانها، واستقرارها، وأمنها النسبى وقيادتها الفكرية للوطن العربى أيضا».

وقد أوضح عبد الناصر فى كثير من خطبه وأحاديثه ورسائله أن الخلافات بين الدول العربية ليست مصطنعة أو سطحية، وإنما هى انعكاس للتناقضات الواقعية المتجسدة فى الوضع العربى. لكن التضامن العربى ضرورى لمواجهة الأخطار الخطيرة والأعداء الأقوياء. وأن العرب فى حاجة إلى تضامن صحيح لا إلى تضامن صورى. يضاف إلى هذا أن التضامن يجب ألا يحد من الجهد العربى أو يعيق من حرية الطلائع العربية. وقال عبد الناصر أن مصر أيدت كل بلد عربى فى نضاله من أجل حريته، وأن قضية فلسطين كانت الحافز الذى دعاها إلى مقاومة حلف بغداد، والدافع الذى حفزها على شراء الأسلحة من

الكتلة السوفيتية لتحطيم احتكار السلاح ، كما أوضح أن مصر احتملت العبء الرئيسى فى دعم نضال الجزائر من أجل الحرية، كما ساعدت تونس والمغرب والسودان وعمان واليمن الجنوبية ولبنان حتى الأردن فى الحصول على استقلالها. وقد قامت مصر بذلك أداء منها لواجب عليها ، إذ أنها تعتقد أن شعبها بطاقاته المادية والمعنوية الضخمة ، قد وضعه القدر فى مركز طليعة النضال العربى وقاعدته المنيعة وليست السيطرة هى دور القاعدة بل الخدمة الصادقة الأمينة . أن إيمان مصر بالقومية العربية إيمان صادق نابع من التيار القومى المندفع لتحقيق الوحدة العربية الشاملة مضيفا أن ما يهمها هو إرادة الشعب العربى أكثر من الشكل الدستورى. وقد أكد عبد الناصر فى مواضع ومناسبات كثيرة أن سياسة مصر هى انعكاس لوجودها، وهو الوجود الذى لا تستطيع أن تتنكر له. لكن هذا لا يعنى أنها تريد أن تفرض سياستها على الدول العربية الأخرى. إذ أنها تعرف أن كل دولة عربية أقدر من غيرها على مواجهة ظروفها الخاصة . ولها الحق فى أن تكون لها الكلمة الأخيرة والقول الفصل فى هذه الظروف .

أما الهدف الثانى للحركة «الناصرية» فهو احتجاج على النظم الاقتصادية والاجتماعية الراهنة فى جميع البلاد العربية وعلى تركيب السلطان السياسى فى بعضها . ولا يمكن فهم هذا الهدف إلا على صعيد التبدل الإجتماعى الذى حدث فى مصر

وفـى كثير من البلاد العربية .. وقد كان من المعروف أن البنيان التقليدى للمجتمـع العربى، تعرض للضعـف نتيجة للضغوط الأوربية الغربية من اقتصادية وسياسية وعسكرية . ومع ذلك فـان عناصر جديدة خُلقت فى هذا المجتمع أخذت تتحدى التوزيع الراهن للقيم الاجتماعية والاقتصادية والسياسـية . وبالرغم من اعتدال هذه الحركة الاجتماعية فى بدايتها ، فان نزعتها المتطرفة أخذت فى الازدياد مع اتسـاع صفوف هذه العناصر الجديدة. وقد أبرز الميثاق الوطنى كثيرا من معـالم هذه التحولات الاجتماعية كما أظهرت تطبيقاتها فى المجال العملى فى مصر انعكاسات لهـا آثارها فى كثير من البلاد العربيـة المتحررة ، بل وفى كثير من بلاد العالم النامى . إلا أن هذا الموضوع باتساعه ودقته يحتاج إلى عـدة بحـوث لبيـان دور فكـر عبـد الناصـر فـى التحولات الاجتماعيـة والاقتصادية التى تجتاح الوطن العربى . والتى أدت إلى ثورة اقتصادية قومية لزيادة الإنتاج وتحقيق عدالة التوزيع . وخلق الفرص المتكافئة أمام الجميع وإذابة الفوارق بين الطبقات والتخطيط لمضاعفة الدخل القومى فى عشر سنوات . وقد كان أسـلوب ذلـك هو تحديـد ملكيـة الأرض وتأميـم الاحتكارات الأجنبيـة، وكذلـك تأميم المصـارف وشـركات التأمين كيلا تكون وسـيلة للتحكم فى اقتصاديات البـلاد ، بالإضافة إلى وضع سياسة ضرائبية جديدة وإنشاء الجمعيات التعاونية .. الخ بمـا يضع البلاد فـى طريق البناء الاشـتراكى والذى يعتبر فيه

الاشـتراكية حلا حتميا لمواجهة مشكلة التخلف ، وهى سبيل الوصول إلى تحقيق العدل الاجتماعى ، كما أنها كانت توسعا عاطفيـا فى الفكرة القومية لتشـمل المشـاكل الناشـئة عن ارتخاء الصلات الاجتماعية التقليدية السابقة.

وكان الهـدف الثالـث للحركـة «الناصرية» هـو الاحتجاج على اسـتقطاب القوى الدولية فى كتلتين متصارعتين . وهذا هو الـذى أملى على عبد الناصر اتخاذ سياسـة عدم الانحياز لأى من الكتلتين العالميتين حفاظا على حرية واسـتقلال الشعوب العربيـة بعيدا عن كافة المحاولات لوضعها داخل مناطق النفوذ . وقـد ناضل عبـد الناصر لتحقيـق هذه السياسـة، وكان أحد ثلاثـة قامت عليهـم هم عبد الناصـر ونهرو وتيتـو. وقد ارتبطت سياسـة عدم الانحيـاز بحركة القومية العربيـة التى تهدف إلى تحقيق الوحـدة ، ليس بهـدف المناورة أو اللعـب على الكتلتين الكبيرتـين ولكنه تأكيد لحركة التحرر ، التى ارتبطت بها حركـة القومية العربية . فهى مبدأ أكثر منها سياسـة طالما أن البـلاد العربية لا تزال فى مراحلهـا الأولى من التنمية الاجتماعية والاقتصادية وحاجتها إلى عشـرات السـنين لكـى تطوى قرون التخلـف التـى فُرضت عليهـا من قبل الاسـتعمار . وهى ليسـت وليـدة حوافـز انتهازية أملتهـا مصالح مصـر ومخططاتها ـ كما يحـاول البعض تصويـر ذلـك ـ ولكنها سياسـة أصيلة تعبر عن الإيمـان الصـادق المطلـق بالسـلام العالمـى عن طريـق التعايش

السلمى ووقف تقسيم العالم إلى كتل متصارعة على النفوذ والسلطان. ومن العسير أن ينظر إليها كشئ مختلف عن كونها عنصراً كامنا فى القومية العربية. كما أنها السياسة الخارجية الوحيدة التى تضمن تحقيق الدوافع الأساسية للسلوك الانسانى. فهى توازن بين الأمة والفرد وتؤكد أن كلا منهما يندفع ويتأثر بمجموعة من الحاجات التى تنظم بصورة حركية فى شكل هرمى. وقد أوضحت هذه الحاجات فى الحفاظ على النفس والمتطلبات الاقتصادية والأمن والسلام، والحرية والاستقلال واحترام الذات.

هذه لمحات عن فكر عبد الناصر القوى الذى يحتاج إلى مجلدات لإبرازه على حقيقته الحية النضرة. لقد كافح عبد الناصر من أجل الأمة العربية ومستقبلها. وكانت روحه لا تعرف اليأس أو الهزيمة، فقد كرس حياته من أجل القضية الثورية لجماهير شعبنا العربى فى كل مكان. وكانت حياته العظيمة زاخرة بالصعاب والتضحيات. ولكنها كانت حياة نبيلة وغنية ونقية، استطاعت أن تطبع بصماتها على حياة الملايين من البشر. وكانت إرادته الثورية انعكاسا لإرادة الجماهير وتصميمها لتحقيق النصر فى كافة الميادين. لقد ناضل عبد الناصر من أجل شعبه ومن أجل الجماهير المضطهدة فى كل مكان. فلم يكن مناضلا وطنيا فقط، بل كان من أبرز مكافحى حركات التحرر الوطنى فى القرن العشرين.

لقد عمل على تحقيق التضامن العربى والدولى من أجل القضية العربيـة ، وقضية الثورة الفلسـطينية ، ومن أجـل تعبئة الجهود لدعم ثورة الشعوب ضد الاستعمار .

لقد قال عبد الناصر فى المؤتمر القومى العام 1970/7/26:

" نحـن نريـد السـلام ولكـن السـلام بعيد . و نحـن لا نريد الحـرب ولكـن الحـرب من حولنا . وسـوف نخـوض المخاطر مهما كانت دفاعا عن الحق والعدل، حق وعدل لا سـبيل لتحقيقهما غـير طرد قوى العدوان من كـل شـبر مـن الأرض العربية المحتلة سـنة 1967 .. من القدس .. من الجولان.. مـن الضفة الغربية .. من غزة .. من سيناء .. وحق وعدل لا سبيل لتحقيقهما غير استعادة الشعب الفلسطينى لحقوقه الشرعية وخروجه من خيام اللاجئين ليدخـل مدنه وقـراه ومزارعه وبيوته . ويعود مـرة أخرى إلى قلب الحياة بعد أن أرغمته الظروف أن يبقـى أكثر من عشـرين سنة على هامش الحياة ..

**هذه قضية شعبنا وقضية أمتنا العربية"**